في معنى الدين الطبيعي

عند دافيد هيوم

د.بدر بقارة
أستاذ محاضر مؤهل
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بني ملال
المغرب

ملخص

خلافا لما كان رائجا في عصر الأنوار من كتابات قاسية وعنيفة تجاه الدين ورجاله، فضل دافيد هيوم (*David Hume*) أسلوب السخرية البارد لتمرير أفكاره في هدوء حتى يستقبلها القارئ النبيه اليقظ. وهو في سعيه ذلك لم يجد أفضل من المحاورات ليبث فيها فكره بطريقة تسمح له بالتنكر وعدم الظهور، ليس فقط بدافع الحرص والحذر كما يعتقد البعض، وإنما بدافع اللعب والمتعة أيضا. السؤال الذي يمكننا طرحه هو ما الداعي لكل هذه الاحتياطات؟ وما هي هذه الحقيقة المربكة التي حرصت المحاورات على إيصالها؟

تطور في القرن الثامن عشر، على هامش الأديان الوضعية[1] (الكاثوليكية، البروتستانتية، اليهودية...) تيار ديني أطلق على نفسه اسم الدين الطبيعي، حاول بكل ما أوتي من قوة الوقوف في وجه احتكار الكنيسة للشأن الديني واتخاذه مطية للسيطرة على الجموع. هذا التيار آمن بالعقل وحدد له وظيفتين أساسيتين تمثلتا في تحرير المعتقد (*Dogme*) من كل ما ليس معقولا وخارقا للطبيعة، والتحرر من سلطة الكنيسة التي تدعي أنها وحدها تملك في يدها خلاص الناس ومفاتيح الدخول إلى عالم الألوهية. فوسط صراع أضحى مريرا بين دعاة الإلحاد وأصحاب الإيمان الأعمى شكل الدين الطبيعي حلا وسطا يعيد تعريف الدين وتأطيره ضمن حدود العقل. فهو طبيعي لأن مصدره أنوار العقل الطبيعية ووعي الإنسان الداخلي، ولأن القيم والأخلاق التي يوفرها تخاطب الإنسان كإنسان بعيدا عن كل الخصوصية والنسبية الموجودة في الديانات الوضعية.

في خضم هذه الأجواء المضطربة فضل دافيد هيوم أسلوب السخرية البارد لتمرير أفكاره بخصوص الدين في هدوء حتى يستقبلها القارئ النبيه اليقظ. وهو في سعيه ذلك لم يجد أفضل من المحاورات ليبث فيها فكره بطريقة تسمح له بالتنكر وعدم الظهور، ليس فقط بدافع الحرص والحذر كما يعتقد البعض، وإنما بدافع اللعب والمتعة أيضا. السؤال الذي يمكننا طرحه هو ما الداعي لكل هذه الاحتياطات؟ وما هي هذه الحقيقة المربكة التي حرصت المحاورات على إيصالها؟

الغريب في الأمر أنها فكرة بسيطة، بل قد تبدو للبعض تافهة، وهي أنه في مجال الدين ينبغي النظر إلى كل المواقف والآراء بدون استثناء على أنها معتقدات يستحيل المفاضلة بينها. وفي عصر مزهو بالعقل وأنواره المبددة لظلمات العصور السالفة، اختار هيوم أن يكون مربكا ومزعجا لخطاب يقتات من التهجم على الإيمان، وتغطيه السلطة السياسية في انجلترا. وهو بذلك خيب آمال المتحمسين للعقل، ورفض الانحياز لأي طرف سواء كان «المؤمن الأرثوذوكسي» أو «المفكر الحر» أو «الملحد»، مجبرا قراءه على تجرع المعاناة التي يسببها عدم الحسم.

في كتاب **محاورات في الدين الطبيعي** لن ينتظر القارئ طويلا ليتعرف على الموضوع؛ فمنذ الصفحة الأولى يضعنا دافيد هيوم في أجواء الإشكالية التي يروم مناقشتها، وهي أن بامفيليوس (*Pamphile*) قد بلغ سنا بات فيه من الضروري أن يضطلع على مبادئ الدين ويكتشف خباياه، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ هل نسلك في إرشاده طريق العقل كما يرى أستاذه كليانتس (*Cléanthe*)،

وذلك عبر التدرج من ملاحظة القوانين الطبيعية إلى الاستدلال على علتها؟ أم أن السبيل القويم يكمن، كما يرى دميان (*Déméa*)، في مواجهة غطرسة العقل وإجباره على تقبل أنوار الوحي؟ هذه الأسئلة هي التي ستشكل أرضية لمحاورات الكتاب الإثني عشر.

في المحاورات هناك شخصيتان تقفان على طرفي نقيض هما دميان (*Déméa*) وكليانتس (*Cléanthe*)، ويشرك هيوم شخصية ثالثة تخطف الأضواء من سابقاتها وهي شخصية فيلون (*Philon*).

يجسد كل متحاور من المتحاورين موقفا فلسفيا خاصا تجاه الدين؛ فدميان الذي يبدو الأكثر سذاجة من بين الشخصيات الثلاث يجسد الموقف الأرثوذكسي المتمسك ببقاء العقل خاضعا لسلطة الوحي، والحريص، من منطلق الحفاظ على نقاء الإيمان وطهارته، على الوقوف في وجه أطروحات الفلاسفة التجريبيين من دون الانزلاق الكلي إلى اللاعقلانية. وفي الطرف النقيض يقف كليانتس المتحمس للعلم وشعار جون لوك (*J.Locke*) الداعي إلى تحويل الدين إلى معرفة وجعله قائما فقط على معطيات التجربة. لذلك سيعمد هذا التلميذ المخلص لنيوتن إلى عرض الدليل البعدي (*a posteriori*) على وجود الله المؤسس على التجربة، والذي سيشكل حجر الزاوية لمذهب الإيمان الفلسفي (*théisme*). أما فيلون فقد جمعت شخصيته كل سخرية هيوم المشككة؛ فتجده تارة متحالفا مع دميان ضد كليانتس، وتارة مع كليانتس ضد دميان، وتارة أخرى يحول حججهما معا إلى هباء ناشرا جوا من الشك ومعريا محدودية العقل البشري.

السؤال الذي يمكن أن يطرحه أي قارئ هذا الكتاب هو التالي: أليست شخصية فيلون معبرة عن فكر دافيد هيوم وناطقة باسمه؟

إذا ألقينا نظرة على الحوارات في مجموعها يمكن أن تكون الإجابة بنعم، لكن بعض الإشارات من هنا وهناك تجبرنا على التريث الجزم في هذه المسألة؛ فالمؤلف عمد عنوة إلى توزيع أهم أطروحاته على فيلون وكليانتس، وهو أمر يزكي الاعتقاد بأن النقاش الحقيقي هو ذلك القائم بين فيلون وكليانتس باعتبارهما المتحاورين الأساسيين، بينما يبدو دميان كرهينة لدى المتحاورين السابقين يستغلانه لإثبات قيمة أفكارهما من خلال دحض أطروحاته. فالنقاش هو في الواقع ليس بين فلسفتين مختلفتين، بل بين تيارين متكاملين ومتصارعين داخل الفلسفة التجريبية، وربما داخل فلسفة هيوم ذاتها.

ففيلون رغم ميله لموقف دميان في بعض الأوقات، نجده دائما على نفس الخط مع كليانتس ومتفقا معه في التصور الذي يلح على إخضاع العقل لمعطيات التجربة الحسية، ويرى المعرفة تفكيرا في الوقائع الملاحظة. وكلاهما متوافقان بشكل ضمني على إدارة الاختلافات الكبرى ضمن هذا الإطار النظري[2].

هناك اختلاف على المستوى النظري يهم حدود المعرفة التجريبية، حيث يرى كليانتس في مظاهر الطبيعة وجود قوة عليا عاقلة وأخلاقية تدل على وجود إله قادر وعاقل (الفصل 2) وخَيِّر (الفصل8)، أما فيلون فسيقوم بالرد على هذين الاستنتاجين على مراحل مختلفة: في الفصلين 2 و8 يفند حجة وجود قوة عاقلة، أما في الفصلين 10 و11 فيفند حجة وجود قوة أخلاقية، وفي الوقت الفاصل بين هذين الردين سيقوم كليانتس مؤازرا من فيلون بنسف البرهان الذي قدمه دميان كدليل على وجود الله. (الفصل 9)

ويلاحظ أيضا وجود اختلاف على المستوى الاستراتيجي يبدأ من الفصل الأول إلى نهاية المحاورات، حيث يرتكز الجدال حول الطريقة الأنسب لمواجهة المتدينين المتشددين: هل تكون بمحاصرة أفكارهم كما يقول كليانتس، وذلك بالسعي إلى معرفة قائمة على أساس علمي؟ أم عبر الوعي بمحدودية الفكر الإنساني والعمل على تعليق الحكم كما يذهب إلى ذلك فيلون؟

سبقت الإشارة إلى أن طبيعة فيلون المتشككة كانت تدفعه إلى مؤازرة دميان في موقفه الداعي إلى التمهيد للتربية الدينية بنقد مسبق للعقل. وكانت هذه المؤازرة حاسمة في تحديد مسار المواجهة الأولى بين فيلون وكليانتس. هذا الأمر جعل كليانتس يوجه سهام نقده لموقف فيلون معتبرا شكه المطلق أمرا مردودا يشذ عن الطبيعة. فالإنسان في هذا العالم مدعو دوما للعمل، ويستحيل عليه البقاء محاطا

بهذا الشك المطبق، بل ويستحيل عليه أن يمارسه في سلوكه لبضع ساعات. «**فالموضوعات الخارجية تضغط عليه، والعواطف تلح عليه فيتبدد تأمله الفلسفي الحزين**»[3]. إنه متواجد دائما في وضعية تفرض عليه اختيارا، والعقل هو الذي يشكل بالنسبة له الهادي والمرشد فلماذا يحتاج إلى غيره؟ إن الفلسفة الأصلية هي التي تكون في خدمة المتطلبات العملية للإنسان وتسعى إلى الرقي بطرق التفكير التي تمكنه من شق طريقه في هذا العالم.

«**إن العمل أفضل بكثير من التأمل**»، وهذا المعطى الواقعي هو الذي يجعل موقف الشكاك متهافتا. فهو يدعي تعليق الحكم حول كل المعتقدات والآراء، والحقيقة أنه في تناقض دائم مع ذاته. إنه يعمل ويعيش ويتحدث كما يفعل غيره من الناس، ثم يأتي بعد ذلك ويعلن توجسه وحذره من الحواس والعقل: هل من الممكن أن يقتنع أحد بهذا الأمر؟ كلا، هذا الأمر لا يقنع لا المتشكك نفسه ولا الآخرين، فمن غير الممكن السير عكس البداهة، ولن يكون للأفكار الفلسفية وزن ولا تأثير على السلوك ما لم تغرف من معين المعتقدات الفطرية.

إن ملاحظات كليانتس هذه قد أجبرت فيلون على إعطاء تحديد لمذهب الشك لديه. فهو يوافق على أن المسائل التي تهم الحياة العامة لا نجد فيها تعارضا بين الحس السليم والفلسفة. وسيكون دور الفلسفة هنا محصورا في توخي أكبر قدر من الدقة والسداد. فطالما أن الاستدلال يستند على الحجة الحسية، وطالما أن مسائل الحياة اليومية تتأسس على معتقدات طبيعية فإن استخدامها يبقى مشروعا وضروريا. غير أن العقل يظهر للأسف توجها تلقائيا وطبيعيا لخرق حدوده والمغامرة في مناطق مجهولة لا يملك حولها أية تجربة أو أحكام، وهنا ينبغي أن نعمل على التخفيف من حماسته ونرغمه على التواضع. هذا الأمر يظهر أن فيلون لا يتبنى مذهبا معينا، حيث أن ما يرومه فقط هو التحذير من غطرسة العقل.

لكن، هل الدين ممكن عقليا؟ لو طرحنا هذا السؤال بشكل مباشر على نص هيوم فإن الإجابة المرجحة ستكون هي النفي، لأن الدين لا يكون عقليا إلا إذا كانت مرتكزاته عقلية. والمرتكزات التي يرتكز عليها كل دين هي: الإيمان بإله مشخص خير يشمل بعنايته الكون والمخلوقات، والإيمان بخلود الروح، والقبول بالمعجزات بوصفها أدلة على أن الدين مصدره من الله. هذه المرتكزات ستتعرض للنقد اللاذع من قبل هيوم باعتبارها معتقدات لا عقلانية لا يمكن أن تقيم عليها برهانا لا يقبل الرد. ويتضح هذا النقد في كتاب المحاورات من خلال الردود على الأدلة التقليدية على وجود الله، وهي الدليل الأنطولوجي (الفصل 9)، والدليل الكوسمولوجي (الفصل2)، والدليل الغائي (الفصل4) .

أما الحجة المضادة للدليل الأنطولوجي فتتمثل في أنه «**لو أن إنسانا تجرد من كل شيء يعرفه أو يراه لعجزه عجزا تماما عن أن يعين _ استنادا إلى أفكاره الخاصة فحسب_ الصورة التي عليها العالم، أو أن يؤْثر بالتفضيل وضعا للأشياء أو حالة لها، على وضع أو حالة أخرى. وإذا لم يكن شيء مما يتصوره بوضوح مستحيلاً أو مشتملا على تناقض، فإن صورة واهمة في مخيلته تكون على منزلة مماثلة لمنزلة الأخرى، ولن يكون في مقدوره أن يبين أي سبب صحيح لكونه يتبع فكرة أو مذهبا ويقصي فكرة أو مذهبا آخر وكلاهما في الإمكان**»[4]. فأي شيء نتصوره موجودا بمقدورنا أن نتصوره غير موجود أيضا، ومن تم فلا وجود لكائن يشتمل عدم وجوده على تناقض. والتجربة لا تقدم لنا أي انطباع ضروري عن موجود واجب الوجود. إن المسؤول عن فكرة الموجود الضروري هو الخيال الذي يمد معرفتنا التجريبية ببعض الصفات مثل القدرة والحكمة والعلم إلى غير نهاية، ويتخيل أنها موجودة في كائن كامل هو الله. لكن الخيال قادر أيضا على سلب الوجود عن أي موجود أيا كان. ومن تم فلا وجود لكائن نثبت وجوده بشكل ضروري. وهكذا انتهت حجة هيوم المضادة إلى إثبات استحالة البرهنة على وجود ضروري لأي شيء.

وإذا انتقلنا لحجة هيوم المضادة للدليل الكوسمولوجي فنجده يذهب إلى أنه لا موجب إطلاقا لنبذ المذهب المادي، مهما زعم اللاهوتيون فإن الحركة يمكن أن تبدأ بدون عامل إرادي كأن تبدأ بقوة الثقالة أو القوة الكهرمغناطيسية مثلا، حيث يصح أن تكون نوعا

من التوليد داخل الطبيعة ذاتها، ثم لماذا نبحث عن السبب الكافي للكون خارجا عنه إلا إذا كنا نفترض بشكل تعسفي أنه «**كل محدود**».

وفي الأخير، يقدم هيوم حجته على بطلان الدليل الغائي الذي يقوم على وجود القصدية والغائية والعناية في الكون، ويفترض وجود كائن مدبر له على غرار الآلات التي يصنعها الإنسان ويقوم بتدبيرها. تتمثل حجة هيوم المضادة في كون أن القصدية وملاءمة الوسائل للغايات يمكن أن تكون آتية من انتظام طبيعي متأصل في المادة، أو أنها من قبيل الصدفة، أو ربما تكون نتاج تعاون مجموعة من الآلهة، أو أنها لم تنشأ عن تخطيط إلهي وإنما حصيلة تجارب الطبيعة البطيئة المتخبطة خلال آلاف السنين. فالدليل الغائي يقوم على مماثلة الكون بآلة من صنع الإنسان، وهذه المماثلة المفترضة غير مشروعة؛ لأنه من غير المنطقي إقامة تشابه بين جزء محدود وناجم عن علة محددة، وبين ذلك الكل العظيم الذي لا نعرف أصلا هل تبقى طبيعته هي هي في جميع أجزائه.

يطعن هيوم في فكرة القصد والغاية ويقدم ما يهدمهما من الأساس؛ فالعجز عن إثبات الوسائل للغايات، ووجود آلاف المآسي والآلام في دنيا الإنسان والحيوان، تكشف في أحسن الأحوال عن إله محدود العقل والقدرة، أو غير مكترث للبشر تماما. ليبقى الإشكال الذي طرحه أبيقور قديما فارضا نفسه بإلحاح: هل أن الإله لا يرغب في حدوث الشر لكنه لا يملك القدرة على رده؟ أم أنه قادر على رده لكنه لا يريد ذلك؟ وإذا كان غير راض عن وجود الشر فمن أين يأتي هذا الشر؟ يقول هيوم: «**يخيل للمرء أن هذا الإنتاج العظيم لم يتلق آخر اللمسات من خالقه؛ فكل جزء فيه ناقص الصقل جيدا، والخطوط التي نفد بها غاية في الخشونة... ليس في الكون شيء كثير النفع إلا انقلب المرة بعد المرة إلى شيء مؤذي إما لإفراطه أو قصوره، ثم إن الطبيعة لم تتخذ حيطتها بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى**». وبالإضافة إلى ذلك «**افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات الحية... ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض...، والكل لا يمثل سوى فكرة الطبيعة العمياء التي تزخر بمبدأ حيوي عظيم، ويتدفق من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية لأطفالها العاجزين**».[5]

لكن هيوم يقوم بنوع من التراجع في خاتمة المطاف موردا على لسان فيلون بأنه «**ليس هناك من طُبع فكره بإحساس أعمق من إحساسي، أو يعبد الكائن الإلهي عبادة أعمق إذ يكتشف في نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلها التي لا يمكن تفسيرها. فالقصد التخطيط، يستدعي في كل مكان نظر أشد المفكرين غفلة وغباء، وما من رجل يمكن أن يتجمد في المذاهب الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول الخط. فكون الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا، إنما هو حكمة راسخة في المدارس نتيجة تأمل أعمال الطبيعة بشكل مجرد وبدون غرض ديني**».[6]

وهكذا يبدو وكأنه لا يرى مانعا من احتمال أن يكون هناك إله، ولكنه يقرر في الوقت نفسه أنه ليس من نوع الاحتمال العلمي، كما أن هذا الإله لا يشبه إله الأديان إلا من بعيد جدا. لذلك يرى أن العناية الإلهية وقصة الخلق التي تؤمن بها المسيحية والأخرويات كلها مجرد خرافات. ومع هذا فإنه يتيح الفرصة أمام فيلون في المحاورة الأخيرة ليبين أن نقده للدين الطبيعي يترك المجال مفتوحا أمام الوحي. يقول: «**إن أبلغ شعور طبيعي يستشعره بهذه المناسبة عقل معد إعدادا جيدا هو رغبة مشوقة وتوقع في أن السماوات يسرها أن تبدد – ولو على نحو طفيف – هذا الجهل العميق بأن تمد البشر بوحي خاص...**»[7]. ليبقى السؤال الذي يطرح نفسه بشدة هو: هل كان هذا التصريح واحدا من تدابير الحيطة التي كانت مألوفة للغاية في القرن 18م؟ وهل كان هيوم صادقا فيما يقول خاصة وأن كل ما ساقه على لسان فيلون لا يمكن أن يؤدي إلى مثل هذا القول؟

الراجح مما سبق أن موقف هيوم هو من تدابير الحيطة لأن سياق المحاورات يدفع باتجاه عدم قبول الوحي باعتباره ظاهرة مفارقة لا يمكن فهمها في ضوء التفسير العلمي العقلاني.

يستخدم هيوم معيارا براجماتيا لقياس الجدوى من الدين، ويعرض في كتاب المحاورات نوعين من الحجج المقابلة؛ يؤكد النوع الأول منها جدوى الدين، في حين يفند النوع الثاني تلك الحجج ويقدم حججا مضادة.

تتمثل الحجج المدافعة عن الجدوى من الدين في أنه هو الوحيد القادر على تقديم تصور شامل لنشأة الكون وخلق الكائنات. فالناظر بإمعان سيبدو له هذا الكون كآلة محكمة الصنع تسير وفق نظام وترتيب دقيقين. وبما أن لكل آلة صانعا فلا مجال إلا التسليم بوجود خالق مبدع للكون. هذه الحجة سترد على لسان كليانتس في المحاورات مشددا على أن «**من بين المميزات العظيمة لمبدأ التوحيد أنه يعتبر النظام الوحيد لنشأة الكون الذي يمكن اعتباره معقولا وكاملا**»[8].

وبما أن الدين يطرح بشكل أساسي نظرية مستقبلية قائمة على وضعية جزائية، فإنه يقدم دون غيره من المذاهب والفلسفات دعامة قوية لقيام أخلاق على أساس الإيمان الديني الذي يغديه الخوف من الجزاء الأخروي. فإذا كان للجزاء القانوني أثر في نطاق الحياة اليومية، فإن هذا الأثر ستتضاعف فعاليته إذا ما كان الجزاء أبديا. ومن ثم فإن توقع الجزاء الأخروي سيكون عاملا مهما الانضباط المجتمع أخلاقيا[9].

وفضلا عن هذا فإن التصورات التي يقدمها الدين عن الحياة والمصير تبقى العزاء الوحيد والسلوى الوحيدة للإنسان إزاء الآلام التي تصادفه. وهي بالنسبة له دعامة أساسية لمواجهة مصاعب الحياة وأزماتها. «**فهو سلوانا الوحيدة المهمة في هذه الحياة، وركيزتنا الرئيسية لمواجهة انتكاسات الحظ المعاند**»[10].

يورد هيوم الحجج المضادة للدين على لسان فيلون، ويبدو واضحا أن هيوم يفسح المجال أكثر ويمنح مساحة أكبر لهذه الحجج. والمعيار الأساسي الذي ينطلق منه هيوم هذه المرة هو نفسه المعيار الذي استخدمه من قبل في سياق عرضه الحجج القائلة بجدوى الدين، والمقصود هو المعيار البراجماتي الذي يقيس الدين بميزان الفوائد الاجتماعية والتاريخية والنفسية والمادية.

وأول حجة مضادة للدين هي تلك التي تحمل الدين مسؤولية الفتن الطائفية والحروب الأهلية والاضطهاد والاستبداد والعبودية. والدليل على ذلك هو أنه «**إذا ذكرت الروح الدينية في أية رواية تاريخية لأيقنا أننا سنلقى فيما بعد تفاصيل عن الشقاء الذي يصحبها، وليس ثمة حقبة في الزمان يمكن أن تكون أسعد أو أكثر رفاهية من تلك التي لم يكن فيها اعتبار ما لهذه الروح الدينية الطائفية، أو لم يسمع عنها شيئا**»[11].

يدحض هيوم الحجة على جدوى الدين الأخلاقية عن طريق تفنيد الاستدلال بالثوابت والعقاب الأخرويين. فالبشر بطبيعتهم لا يبالون بالواجبات الدينية بقدر ما يبالون بالواجبات الدنيوية التي تعود عليه بالنفع المباشر. وهذا الأمر لا يعني نفيا مطلقا للدوافع الدينية، وإنما نفي لكونها لا تقوم بعملها كحافز أخلاقي على نحو مستمر، بل تقوم بذلك على نحو استثنائي. يقول هيوم: «**إن الدوافع الدينية إذا لها تنشط فإنها تعمل عملها في النوايا فحسب، وقلما تمكنها من أن تصير أمرا اعتياديا في الذهن**»[12]. وفي المقابل فإن التجربة تثبت أن أقل شعور طبيعي بالشرف والجود له من الأثر على سلوك الإنسان ما يفوق كل الآراء الكبيرة التي تسوقها النظريات والمذاهب اللاهوتية. فالدافع الحقيقي للسلوك الإنساني يكمن في وجود نزعة طبيعية تأثر فيه باستمرار وتوجه سلوكه على نحو دائم. وإذا ما تعارضت هذه النزعة مع قواعد الدين، فإنها تستحث الذكاء الإنساني كي يبحث عن وسيلة للتخلص من وطأة هذه القواعد، وتمكنه من إيجاد الأعذار والتبريرات التي يعزي بها الإنسان نفسه عندما يتبع نزعته الطبيعية فيما تنزع إليه من سلوك يتعارض مع الواجب الديني.

ونظرا لأن تحليل هيوم للدين قائم على التحليل الطبيعي، حيث يختبر الدين في ضوء الطبيعة الكامنة في الإنسان، أقول نظرا لذلك، فإنه يفحص الدوافع الدينية كأساس للأخلاق في ضوء منهج التحليل السابق. ويكشف هذا التحليل أن الدوافع الدينية ليست متأصلة في الطبيعة الإنسانية، وأنها قائمة على الخرافة. ومع أن الخرافة «**لا تضع نفسها في تعارض مباشر مع الأخلاق**»[13]، إلا أنها تؤدي إلى

سلبيات عديدة؛ إذ يتمخض عنها تشتت الانتباه الإنساني بين الحقيقة والوهم، ونشأة نوع جديد تافه من التقدير، (بمعنى أن أساس التقدير سيتركز على حيثيات الإنجاز الإنساني في مضمار الالتزام بمقتضيات الخرافة)، وفضلا عن ذلك فإن للإنسان سيسلك أي سلوك بناء على ما يسميه هيوم بالتوزع الأحمق بين الثناء والذم؛ الأمر الذي يضعف تماما ارتباط الإنسان بالدوافع الطبيعة للعدالة الإنسانية، ويجعل السلوك الأخلاقي غير نابع من الطبيعة الإنسانية الحقة.

ينتقد هيوم الأثر السلبي للدين على المجتمع المدني، سواء في حالة سيطرة دين واحد أو أديان وشيع مختلفة ومتباينة. فعندما يسيطر دين واحد على المجتمع يصبح الحاكم على استعداد للتضحية بالحرية الفكرية والتقدم العلمي والتقني في سبيل الحفاظ على الاستقرار، في حين أن تواجد أديان وشيع متباينة يجعل الحاكم مضطرا للحفاظ على التوازن فيما بينها إذا ما أراد تجنب الفتن والحروب الطائفية[14]

وهكذا نجد أن التحليل الطبيعي للدين يكشف عن عدم جدواه فيما يتعلق بإقامة الأخلاق والتوازن داخل المجتمع؛ فمفهوم الثواب والعقاب الأبديين لا فاعلية أخلاقية إيجابية له عند هيوم. وإذا كان من أثر لهذا المفهوم بشكل خاص وللدين بشكل عام، فإن هذا الأثر سيكون سلبيا سواء على مستوى الأخلاق أو على مستوى السياسية جراء معارضة الدوافع الدينية للنوازع الطبيعة الحقة. وفي المقابل فإن الدوافع الطبيعية الفاعلة بحق في مجال الأخلاق؛ تلك الدوافع التي تقوم على مراعاة السمعة، والمنفعة الخاصة والعامة، ونوال والاحترام.

المرجع المعتمد: دافيد هيوم، **محاورات في الدين الطبيعي**، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، دار الحداثة، بيروت، 1980.

الهوامش:

[1] . في القرن 18 ظهر التمييز بين ما هو وضعي وما هو طبيعي (positif/naturel) سواء في مجال القانون أو الدين أو الأخلاق...إلخ. المقصود بالأديان الوضعية تلك الأديان التي خبرها الإنسان وجربها عبر التاريخ، وأصبح لها وضع مؤسساتي بفضل مجهودات مؤسسيها الأوائل وبفعل عامل الزمن، مثل اليهودية والمسيحية والإسلام والهندوسية والبوذية... لعبت هذه الأديان دورا أساسيا في تزويد الأفراد بهوية اجتماعية وأخلاقية ومنحتهم الانتماء إلى جماعة أوسع وأرحب

من جماعتهم السياسية (المسيحية، الأمة الإسلامية...)، لكنها تسببت في المقابل في اندلاع الحروب الدينية، وحدوث انقسامات بين الناس. ضد هذا التصور برز مفهوم الدين الطبيعي مستندا إلى فكرة أن مفهوم الله والأخلاق والقانون ليست غريبة عن الطبيعة الإنسانية، يكفي فقط الإصغاء إلى صوت الطبيعة وفتح الأبواب أمام أنوار العقل الطبيعية حتى يتوحد الناس حول عقيدة جامعة تخلصهم من سيطرة رجال الدين وتحترم عقولهم وإنسانيتهم وتبعدهم عن كل مظاهر التعصب والتطرف. تقوم عقيدة الدين الطبيعي على مجموعة من الأسس منها التأكيد على وجود إله خالق يدبر الكون بعناية، ووجود يوم آخر للثواب والعقاب، وعدم القبول بالوحي وعقيدة التثليث.

2 . يتحالف فيلون وكيانتس في بعض الأحيان للرد على حجج دميان.

3 . دافيد هيوم، **محاورات في الدين الطبيعي**، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، دار الحداثة، بيروت، 1980، الفصل 1، ص 73.

4 . المرجع نفسه، الفصل 2، ص92-93.

5 . المرجع نفسه، الفصل 11، ص160.

6 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 195-196.

7 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 215.

8 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 198.

9. المرجع نفسه، الفصل 12، ص 212.

10 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 204.

11 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 204.

12 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 205.

13 . المرجع نفسه، الفصل 12، ص 206.

14. المرجع نفسه، الفصل 12، ص 208.